مقدمة

لقد كثر الحديث عن الحوار وتوابعه بين المسلمين مع بعضهم البعض، وبينهم من جهة وغيرهم من المختلفين معهم في الملة والاختيارات الحضارية الكبرى من جهة ثانية. وأسباب هذا الاهتمام المتزايد والمتعاظم بمسألة الحوار في المجال الإسلامي كثيرة وعديدة، ولحظتنا التاريخية تحفل بالقضايا والضرورات والحاجيات التي تستدعي الحوار وبإلحاح، وفي مقدمة هذه الأسباب حجم التعارف والتقارب الذي تم بين المسلمين وغيرهم في اللحظة الحضارية الحالية، وما صاحبها من مشاكل وحالات سوء التفاهم السياسي والثقافي...، التي أخذت شكل صدامات متكررة وبأشكال مختلفة، ففي الماضي كان متاحًا أمام الكيانات الحضارية المختلفة بما فيها الكيانات الإسلامية أن تعيش بمعزل عن الآخر، ودون الحاجة إليه، وبالتالي كانت في غنى عن محاورته والاتصال به، بينما اللحظة الحضارية الحالية والتي

دشنت تقريبًا في بدايات القرن ١٥م[١]، لم تعد تتيح لأي جهة حضارية الاستقلال عن بقية الجهات، والعيش بمعزل عن جوارها والعالم، وهو ما جعل الحوار ضرورة حضارية لا انفكاك عنها.

وإذا كان الحوار مقتضى حضاريًّا ـ كما أسلفنا ـ اقتضته التحولات التاريخية الكبرى التي دخلها العالم منذ نهاية العصر الوسيط وبداية العصر الحديث، وتتساوى في طلبه جميع الشعوب والكيانات، فإن حاجة المسلمين له أقوى وأكبر؛ فسلبيات سوء التفاهم مع الآخر وخاصة الغرب تقع في الغالب على الطرف الأضعف في العملية الحوارية، وهو في هذه الحالة الطرف الإسلامي، الذي يتوجب عليه نهج الحوار حتى يتسنى له تفادي بعض السلبيات أو بالأحرى التقليل منها.

فقضية الحوار الثقافي مع الغرب وكيفياته قضية بالغة الأهمية في السياق التاريخي والحضاري الذي تحياه الأمة المسلمة اليوم، وتتعزّز مشروعيتها التاريخية والواقعية يوما بعد آخر، فقبل الخوض في تفاصيل ومفاصل هذه القضية لا بد من تحرير القول في عدد من المقدمات التي نراها ضرورية لتحقيق تواصل أفضل بيننا وبين القارئ، وحتى يكون كلامنا دقيقًا وواضحًا أثناء تحليل هذه القضية، وعلى رأس هذه المقدمات: مفهوم الحوار الثقافي ومفهوم الغرب.

---

(١) أرنولد توينبي، الحضارة في الميزان، ترجمة: أمين محمود الشريف، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق، ط٢، ٢٠٠٦م، ٩٢.

١ ـ مفهوم الحوار الثقافي:

إن الحديث عن مفهوم الحوار وتحديداته الاصطلاحية في الثقافة العربية المعاصرة حديث طويل وعريض، ولا يمكن الإحاطة به في هذه المقدمة القصيرة، وليس من شرطها، ولكن الذي يعنينا أكثر في هذه المناسبة هو الإتيان بأفضل هذه التحديدات وأنسبها بالنسبة لموضوعنا. وفي هذا السياق يمكن التعويل على الدراسات الحجاجية المعاصرة التي جعلت من الحوار وفنونه وأنماطه وعلله... موضوعها.

ومن أجمل الدراسات والمراجع التي وقفنا عليها في هذا الباب، والتي يمكن الرجوع إليها باطمئنان في تحديد مفهوم الحوار وبنيته المعرفية دراسة الأستاذ رشيد الراضي التي نشرتها مجلة عالم الفكر في أحد أعدادها السابقة، يقول الباحث في أحد محاور هذه الدراسة: «إن المحاورة (أو الحوار) Dialogue في الأدبيات الحجاجية المعاصرة، هي متوالية من الرسائل أو أفعال الكلام يتداولها واحد أو أكثر من المشاركين. ويكون الحوار بوجه عام بين طرفين، الأول يسأل والثاني يرد، ويجب فيه أن يكون ذا هدف يتعاون الطرفان من أجل تحقيقه، ويلتزمان لأجل ذلك بجملة من الضوابط والمقتضيات»[١]، وخلافًا للاعتقاد الشائع بين الكثير من الناس، فإن هذه العملية التواصلية التي

(١) رشيد الراضي، السفسطات في المنطقيات المعاصرة: التوجه التداولي الجدلي نموذجًا، مجلة عالم الفكر، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، المجلد ٣٦، (أبريل/يونيو)، سنة ٢٠٠٨م، ص١٤٨.

نسميها الحوار هي عملية بالغة التعقيد، وتهددها الكثير من الآفات، فبلوغ الغاية من الحوار وهي التعاون مشروط بجملة من الضوابط والاحتياطات، كما أن الحوار ليس نمطًا واحدًا يسهل التحقق منه على الأقل من الناحية الشكلية، بل إنه مجموعة أنماط ومظاهر من أهمها حسب الأستاذ رشيد: المقارعة الشخصية، المنازعة الجدلية، والحوار التفاوضي، والمباحثة، والمحاورة النقدية...[1].

فالحوار هو عملية تبادل أفعال الكلام (الرسائل) بين طرفين أو عدة أطراف، تتسع لعدة غايات، منها على سبيل المثال: الرغبة في قهر الخصم كما في المقارعة الشخصية، والمنفعة الشخصية في نمط المفاوضة، وإقناع الطرف الآخر في المحاورة النقدية...، وتختلف ضوابط الحوار ومحدداته تبعًا لاختلاف الغايات.

وهذا المعنى له أصل في «لسان العرب» فقد ذكر ابن منظور في هذه المادة: «المحاورة: المجاوبة. والتحاور: التجاوب (...) وهم يتحاورون؛ أي: يتراجعون الكلام. والمحاورة: مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة»[2]، فمعنى التفاعل وتبادل الأجوبة (التجاوب) بين طرفين أو أكثر واضح وجلي في القاموس ومراجع اللغة.

---

(١) نفسه، ص١٤٨ ـ ١٥١.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ج٤، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٠م، ص٢١٨.

إن عملية تبادل أفعال الكلام بين طرفين أو عدة أطراف التي نصطلح عليها بالحوار لها قابلية التعبئة بمضامين وأهداف مختلفة، فهي كالإناء الشفاف الذي يأخذ لون السائل الذي يوضع داخله، فقد يكون الحوار سياسيًا أو ثقافيًا أو حضاريًا... تبعًا لطبيعة محتويات عملية التبادل ومراميها، وبالتالي يكون مفهوم الحوار الثقافي مع الغرب يحيل على طبيعة معينة، وخصائص محددة، يستمد الكثير منها من مفهوم الثقافة المقرون به. فمقاربة إشكالية هذا النوع من الحوار، وتلمس أبعاده وامتداداته، وتقويم حقيقته التاريخية، والتخطيط لمستقبله، سيرتبط ارتباطًا شديدًا بمفهوم الثقافة المرجعي الذي سننطلق منه، الشيء الذي يلح علينا إفراد هذا الجانب بالحديث في هذه المقدمة.

فالثقافة في التداول المعرفي المعاصر من المفاهيم الملتبسة، التي تكثر فيها وحولها الانشقاقات، ويصعب الاتفاق على فكرة محددة لها، وهو ما يقتضي من الناحية المنهجية المبادرة إلى توضيح اختيارنا، وإعلان انتمائنا المعرفي، وإلى أي مدرسة ننحاز. وفي هذا الاتجاه، ومراعاة لطبيعة هذا البحث وغاياته، التي تتعلق بالتأسيس لتواصل جيد، وتفاهم أكبر حول أنماط العيش والهوية...، بين عالَمين: «نحن» و«الآخر» (العرب والغرب)، فإن مفهوم الثقافة الأنسب والأكثر ملاءمة من الناحية المنهجية لتحقيق هذه الأغراض هو المفهوم الذي ينحدر من الأنتروبولوجيا، الذي يهتم بأسلوب حياة الجماعة، بدل المفهوم

التقليدي السائد في العلوم الإنسانية، والذي يربط الثقافة بالنمو الفكري والعقلي للفرد، والجماعة، والطبقة.

يعرف «تي. إس. إليوت»[1] (T.S.Eliot) الثقافة على النحو التالي: «أعني: بالثقافة في المقام الأول ما يعنيه الأنتروبولوجي؛ أي: أسلوب حياة مجموعة معينة من البشر يعيشون معًا في مكان واحد، وتتضح تلك الثقافة في فنونهم، وفي نظامهم الاجتماعي، وفي عاداتهم وتقاليدهم، وفي دينهم. ولكن تلك الأشياء معًا لا تؤلف ثقافة... فالثقافة أكثر من مجموع الفنون والعادات والمعتقدات الدينية. فكل تلك الأشياء يؤثر بعضها في بعض، ولكي نتمكن من فهم إحداها بشكل تام يجب فهمها جميعها»[2]. وبالرغم من غلبة الآداب على «إليوت»، وبعده النسبي عن الأنتروبولوجيا، فقد استطاع أن يقرب لنا المفهوم الأنتروبولوجي للثقافة، بأسلوب مبسط وواضح. **فالثقافة لدى «إليوت» وغيره ممن يتبنون المفهوم الأنتروبولوجي هي: اختزال رمزي ومعنوي للخبرة التاريخية والمجتمعية، وتعبير عن ذكاء المجتمع وفكره في التعامل مع الواقع وتحدياته المختلفة، وتتجلى في الفن والآداب والعادات والعقائد الدينية وطرق العيش...**

---

(١) شاعر وأديب أمريكي ـ إنجليزي، يعتبر من رواد الحداثة، حاصل على جائزة نوبل للآداب سنة ١٩٤٨م، من أهم مؤلفاته غير الأدبية «Notes Towards the definition of Culture» الذي ننقل منه هذا النص.

(٢) آدم كوبر، الثقافة: التفسير الأنتروبولوجي، ترجمة: تراجي فتحي، منشورات عالم المعرفة، ع٣٤٩، مارس ٢٠٠٨م، ص٥١.

ومن ثم، واستنادًا إلى ما سبق، يكون مفهوم الحوار منسوبًا إلى الثقافة؛ أي: الحوار الثقافي، هو المجاوبة بين طرف أو عدة أطراف حول نمط حياة مجموعة من الناس يعيشون معًا فوق مجال معين، سواء كبنية كلية تتكون من عدة عناصر: العادات والتقاليد والدين والفنون...، أو كعناصر مستقلة، أو بعبارة أخرى؛ هو تناول كل طرف لنمط حياة الآخر في أبعاده المختلفة من أجل إدراكه، ونقده، والانتفاع به. ويقع في صلب هذه العملية الحوارية تصحيح الصور الخاطئة، والإدراكات السيئة، التي يحملها كل طرف عن الآخر، والتي تسكن زوايا مختلفة من الثقافة.

فالحوار الثقافي بين العرب والغرب على أساس «نمط الحياة» أو أسلوب العيش يستوعب كل تجارب الحوار وعناوينه المختلفة، سواء تلك الخاصة أو العامة؛ فحوار الأديان، وحوار الحضارات، وحوار الثقافات... هي عناوين جزئية تندرج تحت مسمى الحوار الثقافي بشكل عام، وبالتالي خلال معالجتنا لمظاهر هذا الحوار أو بعض تجاربه العملية والتاريخية سنجد أنفسنا مجبرين على استخدام مفاهيم ومصطلحات أكثر دقة، وأقل تجريدًا، وتحيل على حقائق ميدانية وتاريخية واضحة، مثل حوار الحضارات وحوار الأديان...

فالحوار الثقافي، باعتباره حوارًا، يتخذ الأحوال السالفة، فيكون حوار المقارعة الشخصية أو حوار المباحثة أو المحاورة النقدية...، كما يصطحب الغايات السالفة (الظفر بالمنازعة

وكسب الجمهور، تحصيل المعرفة...) تبعًا للنمط الحواري المحقق. وبالتالي الحوار الثقافي بين العرب والمسلمين من جهة والغرب من جهة ثانية، كمنجز واقعي، يتسع لكل الغايات أو الوظائف التي ذكرها رشيد الراضي في دراسته القيمة[١].

٢ ـ مفهوم الغرب:

إن الغرب في أصله مفهوم جغرافي يحيل على جهة مخصوصة من المعمورة تقابل الشرق. وبديهي أن الحديث عن الغرب بين حملة الأقلام ورجال الإعلام ليس القصد منه المعنى الجغرافي أو الطبيعي، ولكن القصد الأساس ما وراءَه من معانٍ ثقافية وحضارية، فالغرب هو عبارة عن هوية ثقافية وحضارية ما فتئت تنمو وتتطور مع الزمان. وقد حدد أرنولد توينبي في إحدى دراساته هذا الغرب على النحو التالي: شبه الجزيرة الأوروبية الأسيوية، بالإضافة إلى أمريكا الشمالية والجنوبية، وكذلك جنوب إفريقيا وزيلندا الجديدة وأستراليا رغم انتماء هذه الأطراف إلى جهات أخرى غير الغرب[٢].

لكن الغرب ونتيجة للتواصل الكثيف بين الحضارات، وتقلص المسافات بينها، وكذلك نتيجة «الإمبريالية الثقافية» التي مارسها خلال القرنين ١٩م و٢٠م، تلاشى مدلوله الجغرافي

---

(١) من الغايات والوظائف التي ذكرها رشيد الراضي في بحثه: قهر الخصم، كسب الجمهور السامع، المنفعة الشخصية، بناء الدليل، إقناع الطرف الآخر، الحصول على المعلومة، المشاركة في المعرفة، حصول العمل. (رشيد الراضي، م. س. ص١٥١).

(٢) أرنولد توينبي، م. س. ص٢١٠.

وغلب عليه المدلول الثقافي والحضاري، فالغرب اليوم ليس حيزًا جغرافيًا محددًا، ولكنه بالدرجة الأولى مرجعية ثقافية وحضارية قد توجد في الشرق وتحتل أجزاء منه. وقد أدرك الوعي العربي مبكرًا هذه الهوية وهذا المعنى في لفظ الغرب، فأطلق على المفكرين بالمبادئ والأساليب الغربية لفظ المتغربين ودعاة التغريب. فالغرب بحسب هذا الفهم لم يعد أجنبيًا وغريبًا عن العالم العربي والإسلامي، بل أصبح جزءًا من نسيجنا الداخلي، وآخذ بطرف منه، أو بعبارة أخرى: لم يعد الغرب آخرًا خارج الذات، بل أمسى جزءًا منها، أو **آخرًا داخل الذات**.

فالحوار الثقافي مع الغرب هو في العمق حوار مع هذه المرجعية الثقافية والحضارية حيثما تجسدت، في الغرب أو في الشرق. وهو بهذا المعنى ليس جديدًا ولا حديثًا، فقد مارسه العرب والمسلمون لأزيد من قرن من الزمان، ومنذ بداية العصر الحديث، وبطريقة مباشرة وغير مباشرة، عبر وسائل الإعلام والإطارات الثقافية المختلفة، ورغم اختلال بعض شروطه في بعض الأحيان بحيث تنعدم «المجاوبة» أو بعبارة حجاجية عدم تبادل الرسائل، كأن نجد نصًا ثقافيًا عربيًا يناقش مقالة أو نظرية غربية دون أدنى تجاوب من صاحب المقالة أو النظرية.

٣ ـ أطروحة الحوار الثقافي مع الغرب:

إن الحوار الثقافي مع الغرب في السياق التاريخي الذي يعيشه العرب والمسلمون والعالم اليوم ضرورة حضارية وتاريخية،

يتوقف عليه الاستقرار الإنساني والسلم العالمي، كما أنه شرط لازم للتعايش بين المكونات الحضارية فوق كوكبنا «الصغير»، وباعتباره كذلك لا يجب أن يترك لمزاج المثقفين و«أهوائهم»، بل لا بد من تأطيره وتقصيده، حتى يحقق الغايات المرجوة من ورائه، وهو ما يستدعي صياغة وتحديد أطروحته بشكل واضح ودقيق.

ففي سياق بناء هذه الأطروحة يمكن القول: إن العالم في القرنين الأخيرين شهد تقاربًا كبيرًا وتداخلًا في المصالح مثيرًا وغير مسبوق، إلى درجة أصبح معها الحديث عن المصير المشترك للإنسانية يتصدر الخطابات الفكرية والسياسية مهما اختلفت مناسباتها. وهذا التقدم الذي تحقق على مدى قرون، والذي يمكن اختصاره في لفظ قرآني بليغ وهو التعارف، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحجرات: ١٣]، ما فتئ يزداد مع توالي السنين، وتتطور وسائله. والجدير بالذكر في هذا المقام أن تجربة التعارف هاته كانت مؤلمة في الكثير من الأحيان، وقد سجل لنا التاريخ بعبارات واضحة قسوتها.

إن تجربة التعارف هاته التي عاشها العالم بسائر مكوناته الحضارية في العصر الحديث أسست لعلاقة جديدة بين الشرق والغرب، تختلف كثيرًا عن نموذج العلاقة الوسيطية؛ بحيث **أصبح الشرق شرط وجود بالنسبة للغرب ماديًا واقتصاديًا، كما أن الغرب أصبح بالنسبة للشرق شرط وجود من الناحية التقنية والعلمية، وقد**

ظهر ذلك بشكل سافر في المشروع الإمبريالي الذي استهدف على نطاق واسع العالمين العربي والإسلامي، وفي مشروع البعثات العلمية إلى الخارج الذي نفذه المسلمون في أواخر القرن ١٩م وبداية القرن ٢٠م. فاستمرار الغرب، ورفاهه، ووتيرته في التنمية، رهين بخيرات الشرق، كما أن الطموحات النهضوية للشرق لا يمكن أن تتحقق بمعزل عن تجربة الغرب، ودون الأخذ منها، فالاقتباس وقرصنة كيمياء النهضة وأسرارها من ديار الغرب شرط أساسي لتحقيق التنمية في الشرق.

ففي البداية أخذت العلاقة بين الشرق والغرب صورة استعمار واحتلال مباشر، ذلك أن الأجندة الاقتصادية الغربية لم يكن ممكنًا تحققها في السياق الدولي للقرن ١٩م وبداية القرن ٢٠م، دون هذه الوسيلة، لكن وتحت ضغط المقاومة وعوامل أخرى سرعان ما تحولت هذه العلاقة نحو نموذج آخر ظاهره الاستقلال وباطنه الاحتلال، نموذج سيحفظ للقوى الغربية مصالحها الاقتصادية والسياسية في العالم العربي والإسلامي، وبالمقابل سيتيح للقوى الشرقية الأساسية إمكانية المناورة من أجل النهضة والتقدم، من خلال نقل عدد من التجارب الغربية في المجالات المختلفة الصناعية والتعليمية والإدارية...

غير أن الأمر لم يقف عند هذا الحد، ولم يستقر على هذا الحال، ففي العقود الأخيرة من القرن المنصرم تأثرت العلاقة بين العالم الإسلامي والغرب بمجموعة من العوامل أهمها:

ـ انتقال الغرب من الهيمنة السياسية والاقتصادية على العالم العربي والإسلامي نحو الهيمنة القيمية والحضارية، حيث أصبح يروِّج وعلى نطاق واسع لمنظومته القيمية في المجالين الاجتماعي والسياسي، فأصبحت تدخلات الغرب واضحة لدى الدول العربية والإسلامية من أجل حملها على تغيير مدوناتها القانونية وتقاليدها الاجتماعية حتى تنسجم مع المعتقدات الغربية في مجال المرأة والطفل، وفي مجال حقوق الإنسان، والحقوق الثقافية واللغوية لما يصطلح عليه بالشعوب الأصلية مثل الأمازيغ في دول المغرب العربي والأكراد في المشرق العربي. وعلى الصعيد السياسي شجعت الدول الغربية التعبيرات الاجتماعية والثقافية والسياسية المصادمة للثوابت الدينية والحضارية للمسلمين، سواء وجدت في الداخل الإسلامي أو وجدت في الخارج بدعوى الديمقراطية وحقوق الإنسان. وقد ساعدت العولمة الاقتصادية والتجارية والإعلامية على حمل هذه القيم الغربية والتمكين لها في المجالات الإسلامية، الشيء الذي استفز مشاعر الخصوصيات الثقافية والدينية الكامنة في الذات الإسلامية، وحفزها على الظهور بأشكال مختلفة، وتعتبر التشكيلات والتنظيمات الهوياتية، سواء كانت إسلامية أو إثنية انعكاسًا مباشرًا لهذا الوضع المتناقض الذي استحدثته العولمة.

ـ ظهور ردود فعل عنيفة في العالم الإسلامي وخارجه على الهيمنة الغربية بأشكالها المختلفة، وقد تجسدت ردود الفعل هاته في تنظيمات إرهابية، نفذت عمليات انتقامية من الغرب ومصالحه

في المجال الإسلامي وفي الغرب، كما تجسدت أيضًا في اتجاهات سياسية غير متفهمة للمصالح الغربية. ونظرًا لانتساب معظم هؤلاء للمرجعية الإسلامية واستثمارهم الكثيف لمفرداتها، فقد حصل انطباع لدى الغربيين أن الإسلام هو من يقف وراء هذه التجسيدات العنيفة والرافضة للغرب، فانتشرت إثر ذلك موجة كراهية الإسلام والمسلمين وعلى نطاق واسع بين الغربيين.

ـ انهيار الاتحاد السوفياتي وتفكك أحلافه المختلفة، ومن ثم نهاية «الخطر الشيوعي» بالنسبة للعالم الغربي، وهذا التحول بالغ الدلالة من الناحية الإستراتيجية، فقد أتاح فرصة الظهور لبعض النظريات الإستراتيجية التي ترى في الإسلام عدوًا رئيسيًا للحضارة الغربية، بل أكثر من هذا أصبحت حاضرة أثناء تخطيط السياسات الخارجية، ولعل أبرز نظرية في هذا السياق، والتي أثارت جدلًا واسعًا بين المهتمين في دوائر الإعلام ومراكز الدراسات الإستراتيجية: نظرية «صدام الحضارات» للأمريكي صمويل هنتغنتون[1]. ومن ناحية أخرى رأى عدد من الدارسين المهتمين بالدراسات المستقبلية في هذه التحولات إرهاصات أولية نقلت الصراع العالمي من صراع سياسي اقتصادي، مغلف في بعض الأحيان بمبادئ أيديولوجية، إلى صراع قيمي ديني، تحظى فيه قضايا الهوية باهتمام سياسي بالغ[2].

(١) صمويل هنتغتون، صدام الحضارات، ترجمة: د. مالك عبيد ود. محمود خلف، الدار الجماهيرية، ليبيا، ط ١٩٩٩م.

(٢) المهدي المنجرة، الحرب الحضارية الأولى، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ١٩٩٨م.

ـ بروز تهديدات جدية لمستقبل الإنسانية بسبب وتيرة الاستغلال البشري للثروات الطبيعية، والمشاكل البيئية المتزايدة، وفي مقدمتها: مشكل التغير المناخي وارتفاع درجة حرارة الأرض...، ومعلوم أن الغرب هو المسؤول المباشر عن هذه الوضعية نظرًا لاستثماره المكثف للثروات الطبيعية ومنذ الثورة الصناعية خلال القرن ١٨م، بينما العالم العربي والإسلامي من ضمن المجالات الأكثر تأثرًا بهذه التغيرات وسلبياتها المتمثلة في الجفاف وقلة الأمطار...

إن هذه التحولات الجديدة أذكت الانطباعات السلبية لكل طرف عن الآخر، المستمدة من الماضي القريب والبعيد، كما أنها أحيت التراث العدائي الذي يذكر بالمواجهات القديمة بين المسلمين و«الغرب الصليبي»، الشيء الذي جعل العلاقة بين العرب والمسلمين من جهة، والغرب من جهة ثانية، أقرب ما تكون إلى التوتر، منها إلى التعاون والتعارف الذي فيه مصلحة العالمين، وتنذر بصراع وشيك بين الطرفين. فللحيلولة دون انفجار العلاقة بين الغرب والعالمين العربي والإسلامي، وتأسيس علاقات راشدة وناضجة بينهما، قوامها التعايش والتدافع السلمي، خدمة للغايات الإنسانية النبيلة، لا بد من تفعيل الحوار بين الكيانين وعلى أسس واضحة.

فأطروحة الحوار الثقافي بالنسبة للعرب والمسلمين مع الغرب تستمد عناصرها من هذا السياق التاريخي، وهو الذي يمنحها المشروعية الواقعية. فإذا كان الحوار وفي جميع الحالات

معدودًا في الفضائل، فإن النفع والمصلحة توجد بالدرجة الأولى في الحوار الذي يلامس قضايا تتصل بمعضلات الحياة وإشكالاتها الواقعية لا النظرية. والمحاور المقترحة لأطروحة الحوار الثقافي مع الغرب في تقديرنا من هذا القبيل؛ فهي تجسد هموما تاريخية وحضارية «آنية»، حقيقية وليست وهمية، واقعية وليست نظرية، وأهمها:

• إفهام الغرب أن العرب والمسلمين عمومًا هوية حضارية مختلفة، وذات ثقافية مستقلة، لها مظاهرها القيمية والثقافية المتميزة، تعكس ـ كما أسلفنا القول ـ نمط العيش العربي، وخبرة العرب في الحياة، التي تضافرت عدة عوامل في بلورتها، وفي مقدمتها التاريخ، والجغرافية، والدين. وبالتالي لا يمكن أن يتطابق هذا النمط كلية وتماما مع المنظومة القيمية الغربية، لكن قد يتقاطع معها في بعض الجوانب.

• بيان أن الحضارة الإسلامية ليست «حضارة أصولية» غايتها اجتثاث المكونات الحضارية الأخرى والقضاء عليها، وذلك بتأصيل مفهوم احترام الآخر في الثقافة الإسلامية وترجمته إلى لغات الآخر.

• تصحيح تمثلات الإنسان الغربي عن الإسلام والمسلمين، بعدما أساءت إليها العمليات الإرهابية التي نفذها بعض المسلمين في الديار الغربية.

• مشاركة الإنسانية همومها التي تهدد استمرار النوع

البشري على وجه الأرض، وفي مقدمة هذه الهموم قضية البيئة، وأسلحة الدمار الشامل.

• التطلع الجدي إلى المساهمة الفعالة في صياغة القيم العالمية الجديدة، وعدم الاكتفاء بالتعريف بالذات العربية والإسلامية، بعدما تقلصت المسافات بين التشكيلات الحضارية التي تتقاسم العيش على كوكبنا.

وللإشارة فإن هذه المحاور ليست جامعة لكل القضايا ذات الأولوية في الحوار مع الغرب، ولكنها في تقديرنا تنبه إلى القضايا الأكثر أهمية في هذا الباب، ذلك أن الموضوع يتسع لقضايا كثيرة وعديدة.

وفي مقابل هذه الأطروحة المقترحة هناك عدة أطروحات أخرى للحوار مع الغرب، بعضها صادر عن العرب، والبعض الآخر صادر عن رجال الفكر والسياسة الغربيين. ومن أبرز الأطروحات العربية في موضوع الحوار الثقافي مع الغرب أطروحة أ. السيد يسين الخبير في معهد الأهرام للدراسات الإستراتيجية، المتضمنة في مداخلته في ندوة أبو ظبي (٢٠٠٦م) حول الحوار العربي مع الآخر، وندوات أخرى تحت عنوان: «الحوار الثقافي العالمي: رؤية عربية لحوار الثقافات»[1]. يرى السيد يسين أن

(١) أ. السيد يسين، الحوار الثقافي العالمي: رؤية عربية لحوار الحضارات، بحث مقدم في ندوة الرباط التي نظمتها وزارة الثقافة المغربية أيام ١١ ـ ١٢ سنة ٢٠٠٣م، تحت عنوان: «حوار الثقافات هل هو ممكن؟»، منشورات وزارة الثقافة المغربية ط١، ٢٠٠٥م، ص٨١ ـ ١٠٨. وهي نفس المداخلة تقريبًا في ندوة أبو ظبي حول صياغة =

الحوار بين الحضارات يهم أمرين أساسين: إشكالات معرفية وأخرى واقعية.

فبالنسبة للإشكالات المعرفية التي يثيرها حوار الحضارات فهي كثيرة ومن بينها: استشراف المستقبل وعدم اليقين، نحو عقد طبيعي: مستقبل النوع الإنساني ومستقبل الكوكب، نحو عقد ثقافي جديد. وقد عول السيد يسين في تحديد هذه الإشكاليات على جهود عالم الاجتماع الفرنسي «جيروم باندیه» رئيس وحدة البحوث المستقبلية في اليونسكو، الذي استطاع إلى جانب فريق بحث أن يصوغ هذه الإشكاليات في كتاب «مفاتيح القرن ٢١م».

أما بالنسبة للإشكالات الواقعية فهي الأخرى كثيرة، منها على سبيل المثال: كيف يمكن تحقيق التنمية المستدامة لكل الناس؟ كيف يمكن لديمقراطية أصيلة أن تنبع من النظم السلطوية السائدة؟ كيف يمكن تضمين القرارات الكونية الاعتبارات الأخلاقية نحو نظام عالمي جديد؟ وقد رجع السيد يسين في تحديد هذه الإشكالات إلى تقرير سنة ٢٠٠٠م، الصادر عن جامعة الأمم المتحدة بطوكيو.

فـ«إذا كانت الإشكاليات المعرفية والمشكلات الواقعية التي ستواجه الإنسانية في القرن الواحد والعشرين هي ما نقترحه لتكونا

= مبادئ عامة للحوار العربي مع الآخر (٤ ـ ٧ يناير ٢٠٠٦م)، ص٣٥، منشور في موقع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم:

http://www.alecso.org.tn/index.php?option=com_content&task=view&id=503&Itemid=496&lang=ar.

المحور الأول والثاني من محاور حوار الحضارات، فإن المحور الثالث والهام هو ضرورة صياغة نظام عالمي جديد يحل محل النظام العالمي الراهن»[1].

فأطروحة أ. السيد يسين على أهميتها، والخبرة الواسعة لصاحبها في هذا الميدان، نلاحظ عليها ضمور الهموم العربية في ثناياها، والموقف الكوني أو الأممي لصاحبها، وهذا مفهوم وطبيعي ما دامت كل المراجع المعرفية والفكرية التي اعتمدها أممية، وخاصة كتاب «جيروم باندیه»، وتقرير جامعة الأمم المتحدة بطوكيو. فرؤيته للحوار تتوخى في النهاية إنتاج حضارة عالمية واحدة، تذوب فيها سائر الحضارات (العربية الإسلامية، والغربية، الصينية...)، والإشكالات المعرفية والمشكلات الواقعية التي ذكرها في بحثه تضعنا على سكة واحدة مع بقية العالم، في حين مشروع الحوار العربي مع الآخر، سواء كان حضاريًا أو غير ذلك، يطرح علينا إشكالات معرفية ومشكلات واقعية من نوع آخر، تتعلق ـ أولًا ـ بأهلية الذات الثقافية والحضارية العربية في الظرف الحالي للحضور في هذه الحضارة العالمية الإنسانية، وإمكانية ذلك، كما أن من بين الشروط الأساسية التي يقتضيها الانتماء إلى النادي الحضاري الإنساني والعيش مع الآخر في أمن وسلام إعادةَ صياغة الخصوصية الثقافية العربية والإسلامية، بصورة لا تتعارض مع مستلزمات التعايش من

(١) السيد يسين، الحوار الثقافي العالمي، ضمن كتاب «حوار الثقافات هل هو ممكن؟»، م. س. ص١٠٦.

جهة، وتظهر المضمون الإنساني لهذه الخصوصية من جهة ثانية.

فأطروحة الحوار الثقافي التي نقترحها في هذا البحث تختلف عن أطروحة السيد يسين في كونها ترتكز على حقائق الذات الثقافية العربية، وتستحضر تعقيدات علاقتها بالآخر الغربي.

فبعد هذه التأسيسات النظرية والتاريخية السريعة، التي توجناها باقتراح أطروحة للحوار الثقافي مع الغرب، تجلت أمامنا الأسئلة التالية: هل الحوار الثقافي الذي مارسه العرب والمسلمون مع الغرب لحد الآن ينسجم مع هذه الأطروحة؟ وهل يمكن أن يحقق من الناحية النوعية الغايات المقصودة من الحوار بين الطرفين؟ ما هي الكيفيات والآليات التي تؤطر هذا الحوار؟ وهل هي كافية ومساعدة على إنجاحه؟ هل توجد في سياقنا الثقافي العربي تجارب نجحت في تأسيس حوار جاد ومؤثر مع الغرب؟

إن هذه الأسئلة وما يتناسل منها ستكون موضوع بحث مفصل ودقيق في الفصول القادمة بحول الله وقوته.

الفصل الأول

تجربة الحوار الثقافي مع الغرب
قراءة تقويمية

بادر العرب والمسلمون في العقدين الأخيرين من القرن العشرين، وبشكل مكثف في بداية القرن الحالي إلى طرح قضية الحوار مع الغرب بإلحاح وجدية، بعدما ظهرت جليًا الأخطار التي تهدد الجماعة الإنسانية من جراء غيابه، وتهدد بشكل خاص العرب والمسلمين. ولم تقتصر مبادرات الحوار مع الغرب على الدوائر الرسمية العربية والإسلامية، بل تعدتها إلى المكونات الفاعلة في المجتمع الأهلي، وعدد من الشخصيات الثقافية والفكرية، وذلك لإحساس الجميع بالحاجة الماسة إليه.

فبعد قرابة ثلاثة عقود من التنظير للحوار مع الغرب، وممارسته في حقول مختلفة حضارية ودينية وثقافية...، وبوسائل وكيفيات متعددة، أصبح التساؤل مشروعًا عن حصيلة هذا الحوار، ومدى تحقيقه لأهدافه ورهاناته التي أعلنها منذ الوهلة الأولى. وسنحاول فيما يلي القيام بمراجعة نقدية لتجربة الحوار